أثر الإسلام في شعر ابن الرومي
(دراسة نقدية)

دكتورة/ منى محمد عبدالله أبوهملاء
أستاذ الأدب والنقد المساعد-قسم اللغة العربية
كلية الآداب- جامعة الملك فيصل

مقدمة:

بسم الله خير الأسماء، الذي لو لم يبدأ به عمل، لما وصل منتهاه، وأفضل الصلوات على سيد ولد عدنان، سيدنا وحبيبنا، محمدﷺ النبي، العليّ، الزكيّ، وعلى آله وصحبه، أجمعين، وبعد:

فكثيرة هي الظواهر الأدبية، وكثيرٌ هم الذين يتعرضون لها بالدراسة والنقد، وتتفاوت تلك الدراسات، فمنها ما هو إبداع خاص، ومنها ما هو تكرار محض، تمجه النفس السوية، ويعافه الطبع السليم، ومنها ما ينطلق مما سبق؛ ليضيف إليه ويكمله.

ولعل أهم سمة في الدراسات الأدبية، وأبرزها، إمكانية الإضافة لجهود سابقة، تتسلسل فيها المحاولات في حلقة متصلة، لا تفقد جمالها، ولا جديتها؛ ذلك أنها تعرض الموضوع من زاوية، تختلف عما سبق، فضلا عن انعكاس معطيات العصر وثقافة الكاتب وشخصيته على كل دراسة؛ مما يجعل هذا النوع من الدراسات، في حالة تجدد، مستمر، وإن حملت ذات العنوان.

وتراثنا الأدبي قادر على العطاء السخي، في زمن، تتصارع فيه القيم، وتضطرب المفاهيم، وتتضارب المواقف، وتتناقض الأهداف، فتضيع الكلمة، ويضيع الإحساس الصادق بها في خضم هذا التصارع والاضطراب، فما أحوجنا! في مثل هذا الزمن إلى قراءة جديدة، وفهم جديد لتراثنا، إلى قراءة.. تستشف الفضيلة وتبرزها، وتسعى حثيثا نحو التوحد في الشعور والموقف، إلى قراءة.. عمادها الوضوح والصدق، اللذين طالما فقدناهما في معظم الأعمال الأدبية والنقدية المتأثرة بالأساليب الحديثة الملتوية فكرا وأسلوبا.

فإن الوضوح والصدق لا يتأتيان إلا من نفس، مفطورة، على الإيمان، تستشرف الحياة، جليلها، ودقيقها من قاعدة إيمانها بالخالق ﷻ، وإحساسها الدائم بإعجاز كونه،

ومخلوقاته، متخذة من القرآن الكريم هاديها وسر انطلاقها وقوّتها، فهو –القرآن الكريم– الذي يمنحنا بدوره التعرف على صنوف البلاغة، وأساليب فن القول، وصدق الرؤية، والالتحام الشديد بين المضمون والشكل.

ومما لا مراء فيه أن أدباءنا القدماء، قد فطنوا إلى هذا المنهل الثرّ، الذي لا ينضب؛ فأقبلوا عليه، يتزودون؛ فكان لهم ما أرادوا؛ فظهر أثر هذا في شعرهم ورؤاهم.

فابن الرومي من أولئك الشعراء، الذين تمثلوا روح القرآن الكريم، والثقافة الإسلامية، ولم يظهر هذا في قصائده، التي نظمها في الزهد فحسب، بل امتدّ إلى شعره المنظوم في شتى الأغراض: في المديح، وفي الهجاء، وفي الرثاء، وفي الشكوى والعتاب.

وقد برز بحثنا هذا في مقدمة ومدخل، تلته ثلاثة مباحث، اضطلع المدخل لبيان أصل شاعرنا ونشأته، ومنزلته الشعرية، وثقافته وعصره، ثم جاء أول مباحثنا: التأثير والتأثر في الأدب، ومن بعده المبحث الثاني: أثر الإسلام في الأدب، ومن بعده بؤرة بحثنا هذا ألا وهو المبحث الثالث: أثر الإسلام في شعر ابن الرومي.

ولعلي بتلكم الدراسة، أكشف عن اتجاه، جديد في شعر ابن الرومي، يبين أثر الإسلام في تكوين رؤيته، وأسلوبه، راجية من الله السداد والتوفيق، وأن نكون فاتحة خير دراسات معمقة عن ذلك المنحى الجليل من مناحي شعرائنا الفضلاء، لسان العربية، ومفسريها.

مدخل:

سنتناول هنا الحديث عن أصل ابن الرومي ونشأته إذ هو أبو الحسن، علي بن العباس بن جريج، وقيل جورجيس، المعروف بابن الرومي، مولى عبيد الله بن عيسى بن جعفر بن المنصور بن محمد بن علي بن عبدالله بن العباس بن عبدالمطلب –رضي الله عنهم– جده جُريج، كان يوناني الأصل، إذ نراه في شعره، ينسب نفسه إلى اليونان مرارا، وقد يسميهم الروم من مثل قوله:

ونحن بنو اليونان قوم لنا حجى ومجد وعيدان صلاب المعاجم(١)

وكانت أمه فارسية، وقد يفخر بنسبه العريق من قبل أبيه وأمه كما في قوله:

كيف أغضي على الدنية والفرس خؤلي والروم هم أعمامي

ولقد ولد ابن الرومي ببغداد سنة إحدى وعشرين ومائتين، وتوفي يوم الأربعاء لليلتين بقيتا من جمادى الأولى سنة ثلاث وثمانين، وقيل أربع وثمانين، وقيل ست وسبعين ومائتين، ودفن في مقبرة باب البستان.(٢)

أما عن منزلته الشعرية، فلقد أوجز ابن خلكان في وفياته مجموعة الخصائص، التي يتحلى بها شعر ابن الرومي من نظم عجيب، وتوليد غريب، وغوص على المعاني النادرة لاستخراجها من مكامنها، وأكد ابن خلكان على خصيصة، مهمة وهي ظاهرة الاستقصاء في شعر ابن الرومي، وهو في ذلك قد أجملَ في عباراته القصيرة معظم ما اشتهر به ابن الرومي من سمات فنية.

ونعتقد أن الإنسان وليد انعكاس لثقافته وعصره، لذا كان لزاما علينا أن نقدم ومضة إضاءة على ثقافته وعصره.

فقد بدأ العصر العباسي الثاني بخلافة المتوكل على الله، العباسي سنة ٢٣٢هـ، وينتهي بظهور الدولة البويهية سنة ٣٣٤هـ، وقد سمي بالعصر التركي؛ لتسلط الأتراك فيه على أمور الدولة.

وأول من استكثر منهم وقدمهم في الدولة الخليفة المعتصم، أما العصر، الذي سبقه فهو فارسي الطابع؛ لتغلب العنصر الفارسي فيه على نظيره من العرب.(٣) لقد شهد

ابن الرومي تسعة خلفاء عباسيين، هم: المعتصم، والواثق، والمتوكل، والمنتصر، والمستعين، والمعتز، والمهتدي، والمعتمد، والمعتضد.

ولعل أهم ما يميز حكم هؤلاء الخلفاء، هو التغير السريع، وعدم الاستمرار في الحكم؛ إذ قد يعزل الخليفة، أو يخلع، أو يقتل، أو تشب فتنة في عصره، مما وصم العصر بالفوضى، وعدم الاستقرار، فيتفشى الاضطراب فيه والزعزعة، والاهتزاز، وقد أرجع د.شوقي ضيف هذا التدهور في الخلافة العباسية، إلى أن كثير من الخلفاء انغمست في اللهو والترف، ومتاع الدنيا، وأولهم المتوكل.(٤)

وعلى المستوى الثقافي نجد أن القرن الثالث الهجري جامع لأشتات الثقافة بفروعها، كثير الآداب والعلوم، كثير الشعر، كثير المعنيين بالأشعار.(٥)

ولقد نهل ابن الرومي من معين هذه الثقافة المتنوعة لغة وأدبا ونحوا، وعلوما، تتعلق بالمنطق والفلسفة، والطبيعيات، والنجوم وما يتصل بهذه المنقولات من أساطير اليونان، وحكايات الفرس، ومرويات الهند، كما استطاع باقتدار أن يسخر كل هذه الثقافة في شعره وفنه؛ فجاء شعره نابضا بها، حافلا بما شاع فيها من أساليب المنطق، وأقيسة الفلسفة.

فيقول ابن الرومي عن الخمر:

أحـــل العراقـــي النبيـــذ وشـــربه وقـــال: الحرامـــان المدامـــة والـــسكر
وقـــال الحجـــازي الـــشرابان واحـــد فحلـــت لنـــا بـــين اختلافهمـــا الخمـــر
ســـآخذ مـــن قوليهمـــا طرفيهمـــا وأشـــربها لا فـــارق الـــوازر الـــوزر(٦)

ويعلق د. محمد أبو الأنوار على شعر هذه الأبيات قائلا: "فيه استخدام جيد للمنطق والرياضة فيما يعرف بقياس التساوي، وفيما يعرف بتساوي الأضلاع المتناظرة في مثلث واحد، أو في مثلثين متقابلين، والقياس الفقهي يعني النفاذ من قول أبي حنيفة بحل النبيذ إلى القول بحل الخمر عند مخالفيه، إذ النبيذ مختلف فيه بين الطرفين، والخمر كالنبيذ في الحرمة سواء بسواء إذن فهما متساويان في العلة.

وأحدهما مختلف في حله وحرمته؛ فيكون الآخر مثله خاضعا لنفس الخلاف، وبالتالي يمكن القول بالحل في الخمر، عملا بالقياس على النبيذ، وذلك كقولنا في المقولات

المنطقية: (أ = ب، وأ مقول بحله إذن: ب) لا بد أن يكون مقولا بحله، وما ينطبق على أحد المثلين يلزم للآخر."[٧]

وقوله في الغزل:

نظـــرت فأقـــصدت الفـــؤاد بلحظهـــا ثـــم انثنـــت عنـــه فظـــل يهـــيم

فالموت إن نظـرت وإن هـي أعرضـت وقـــع الـــسهام ونـــزعهن ألـــيم

ولقد أدرك أبو العلاء المعري هذا الميل عند ابن الرومي، نحو الفلسفة، التي تدل على تشعب ثقافته حين قال: "وأما ابن الرومي فهو أحد من يقال: إن أدبه كان أكثر من عقله، وكان يتعاطى علم الفلسفة."[٨]

ويؤكد د. شوقي ضيف على تشعب ثقافة ابن الرومي، وعلى قدرته على تمثلها تمثلا نادرا.[٩] وهو يعني بذلك حسن توظيف ابن الرومي لهذه الثقافة في فنه وبناء قصائده.

ولم يكن القرآن لفظا مقتبسا في شعر ابن الرومي، ولا وسيلة تعبيرية، يمتطيها للوصول، بل حياة، تسري في روحه ودنياه، فتنعكس على فنه وإبداعه.

وإنني لأعجب من أولئك الباحثين، الذين ضلوا طريقهم في دراسة شعره، ووصموه بالطيرة والتشاؤم، وهو القادر على إضحاك الناس رغم بؤسه وفقره، وهو مبدع الهجاء الكاريكاتيري في الشعر العربي، وهو الذي أتقن الوصف، وانطبعت ثقافة العصر على ألوانه التعبيرية والتصويرية، وهو الذي استطاع أن يحول تجربته الشعرية إلى تجربة إنسانية، إيجابية، تتجاوز حدود الزمان والمكان.

ويشتد عجبي حين يقرأ شعره منفصلا عن ذاته المقبلة على الحياة القادرة على الخلق والتجدد والشمولية في إدراك ما حولها، لقد أسعدنا ابن الرومي بفنه، وبرؤيته، وجعلنا نحسن التكيف مع ظروف الحياة، وعلمنا كيف نتعالى على حماقات الناس، وسفاسف الأمور، فما أحوجنا إلى دراسة شعره من جديد! هذا الشعر، الذي يتغلغل في خفايا الروح، ويسبر أغوارها؛ فتتجلى الرؤى، وتزدان الحياة.

المبحث الأول: التأثير والتأثر في الأدب.

الأدب نتيجة طبيعية للتعبير عن الحاجات الفكرية، والرؤى التي تتكون عبر مواقف اجتماعية للوطن وللقومية، وإن صدق هذه الآثار الأدبية هو المعيار، الذي يحقق لها صفة الديمومة، والخلود كون تلك الآثار الأدبية، تتجذر في الوعي الوطني التاريخي.

وإن النقل الصادق للآمال، والآلام النفسية، والاجتماعية المشتركة بين الكاتب، والمجتمع وهذه العلاقة بين الأديب والجماهير تقتضي بالضرورة أن يكون الأدب منفتحاً على نطاق واسع لا محدود ومن هنا، فإن خصوصية الأدب تعني محدودية انتشاره، وكلما اتسعت دائرة انتشاره، اكتسب صفة الشمولية، والتعميم وبذلك يصبح التأثر والتأثير صفة عالمية وبصمة يحملها الأدب في تأليفه الإبداعي شعراً كان أم نثراً.

فعالمية الأدب تتأتى من خروجه من دائرة الذات والوطن واللغة الأم التي كتب بها إلى مدى أوسع وأفق أرحب من خلال انتقاله إلى لغات أخرى وبذلك يكون الأدب خارجاً من نطاق الذاتية إلى الآخر ومن المواطنة بمعناها الاجتماعي وحدوده الجغرافية إلى اشتمالها على البعد العالمي ليؤثر في آداب الشعوب الأخرى عبر تلاقح فكري بعملية التأثر والتأثير؛ ليزداد الأدب اكتمالاً، وهو يساير ركب الحضارات الأخرى.

فالأدب بذرة محققة بفعل، وجودي من خلال انصهار الذات بالآخر وهذا التأثر والتأثير، يثمر خصب معرفة وينتج ثمر ثقافة على أوسع مدى. وكلما ازداد التأثير والتأثر، ازدادت عالمية الأدب واتسعت دائرته الوجودية، واكتسب صفة العمومية والعالمية؛ لأن الأدب صورة لمجتمع.

وأياً يكن الأدب فإنه ينتج بخصوصية القطرية والبعد القومي بامتداده الأشمل معتمداً على ما يأتيه من الخارج ليتمثل به ويطبعه بطابعه فيكمل به ويتكامل معه.

فالتأثر والتأثير عاملان يسهمان في رقي الآداب وتطورها وهذان العاملان (التأثر والتأثير) هما من خصوصية الأشياء الوجودية، فلا حياة بلا تأثر ولا وجود بلا تأثير وإن التجارب الإبداعية للشعوب عبر تاريخها الطويل تثبت أن نهضاتها الفكرية إنما كانت نتيجة حتمية فرضتها عملية التأثر بالآخر فكل عملية تأثر وتأثير لا بد أن تحقق نهضة فكرية؛ لتحقق المزيد من التقدم والتطور، اللذين يحتاجهما أي مجتمع ليتقّدم. فيما

تبقى للقومية وللوطنية خصوصية المحافظة على الأصالة وعلى مقومات اللغة وهذه المحافظة لا تلغي بدورها ضرورة الانتفاع والإفادة من كل ما هو جديد ومستورد.

المبحث الثاني: أثر الإسلام في الأدب.

إن الأدب من منظور إسلامي هو أدب العقيدة الإسلامية، التي تحثُّ الفرد والمجتمع على اتباع الحق، وقول الحق، والشهادة بالحق في كل شيء، والأدب هو فنُّ العبارة ذات الكلمة الصادقة، ولذا كان لزامًا على المسلم أن يَلتزم في سلوكه ومُعاملاته وأفعاله وأقواله ما هو خير، والنقد الأدبي مِن منظور إسلامي يُعنى عناية تامَّة باستجلاء النصوص الأدبية؛ ليضعها تحت المِجهَر النقدي فيُخرج صالحَها مِن خبثِها.

ولقد لازم النُّقاد الإسلاميون إدامة النظر في العطاء الأدبي الإسلامي حين أدركوا – عن قناعة تامة – أن الإسلام هو الكفيل بإصلاح الناس مِن خلال معتقداتهم وأخلاقهم وعطائهم الأدبي، ومن خلال هذا المنهج في النقد الأدبي الإسلامي يتعيَّن على كل ناقد واعٍ بصير مُنصِف أن يقر بأن أول مصادر هذا الأدب هو القرآن الكريم، ذلك الكتاب السماوي الذي غيَّر العقلية العربية، ورفع النظر مِن الأرض إلى السماء، وعلَّم الناس أن يَقرؤوا كتاب الطبيعة في فصوله المختلفة مِن إنسان ونبات وجبال ونجوم وأرض وسماء، وأن يقرؤوا ما بعد الطبيعة مِن إله فوق العالَمين هو نور السموات والأرض.

وبذلك كشف القرآن عن العيون غطاءها فأصبح بصرها حديدًا فنظرت إلى العالم مِن أعلى، ورأته وحدة مُتناسِقة الأجزاء تخضَع كلها لإرادة الله – تعالى – وأعلنَ القرآن الكريم الثورة على النظرة المادية الأرضية التي كان يَنظر بها الجاهِلون وغيرهم مِن أمم الأرض، فكانت ضربة المعول في الأصنام دعوةً إلى النظر الجديد فدوَّت كلمة "لا إله إلا الله" في جزيرة العرب مُعلنةً ضياع الوثنية وعبادة المادية، كان هذا في القرآن وأكثر مِن هذا، وكان لزامًا أن تتغيَّر نظرة الأدب، وخاصة نظرة الشِّعر والشعراء ليرتفع نظر الشاعر الإسلامي ارتفاعه في عقيدته، وأن يكون له جانب روحي – كجانبه المادي – يرى القرآن يدعو إلى العزة، ليكف الشاعر عن المبالغة في المدح، ويدعو إلى عفَّة اللسان، ليكفَّ الشاعر ويتحرَّج عن الإقذاع في الهجاء، ويرفع القرآن من شأن المرأة لتعظم في قصيدة الشاعر فيتسامى في الكلام عن جسدها إلى الكلام عن رُوحها أمانة وعفَّة وخلُقًا.

ولكن الشعر الإسلامي في الحقبة الزمنية من تاريخ الأدب لم يتخذ له إمامًا غير الشعر الجاهلي؛ فقالبه قالبه، وموضوعاته ومادته مادته، وإن كان هناك جديد فجدة في العَرض لا في الجوهر، في الشكل لا في المضمون، جدة لا تتجاوَز رقَّة اللفظ بدل خشونته، وتحوير المعنى بدل ابتكاره، وهذا الحكم حكم ليس عامًّا، وإنما يخصُّ كثيرا مِن الشعراء.

وذلك لأن واقع الشعر العربي يشهد بوجود عدد من الشعراء انفردوا باتجاه جديد نحو العقيدة الإسلامية يُعبِّر عن شِعر الجهاد الإسلامي فيُصوِّر معارك الفتوح الإسلامية، ويزن الفضائل الإسلامية بميزان الإسلام داعيًا إلى الفداء بكل غالٍ ونفيس داعيًا إلى كريم الأخلاق وسموِّ الروح، وعفَّة النسيب، وسماحة الأريحة، وسخاء اليد، ولنقف على كل شيء مِن هذه الخصائص في هذه المقطوعة مِن الشعر الإسلامي المعاصر الذي وَرِث الفضائل الإسلامية مِن إلهامات الشعراء في مختلف العصور الإسلامية التي اتخذت القرآن والسنة محرابًا لشِعرها وشُعورها.

ومما لا شك فيه أن الإسلام أثر في الأدب واللغة، ويتمثل ذلك في نزول القرآن الكريم باللغة العربية، مما أتاح لها سرعة الانتشار والديمومة والحفظ، كما أن للحديث النبوي أثره في الأدب واللغة كليهما، حيث إنه عاون القرآن الكريم في انتشار اللغة العربية وحفظها،وبقائها، كما أنها هيأ نشأة الكتابة التاريخية.

وإن الإسلام أيضا قد أثر في النثر والشعر، ففي مجال النثر كان ظهور الإسلام إيذانا بتطور واسع في الخطابة، إذ اتخذها الرسول ﷺ أداة للدعوة إلى الدين كما أن القرآن الكريم والسنة المطهرة كان لهما الأثر الواضح في نمو وتطور الشعر العربي أما الأثر غير المباشر للقرآن في الشعر فيتضح في رواية الشعر وجمعه، فلولا القرآن الكريم ما جمع الشعر وما اهتم به الرواة.

وعندما نتعرض لموقف الإسلام من الأدب عامة والشعر خاصة، نلحظ أنه كان محددا "وأما موقف الإسلام من الشعر والشعراء فقد تجلى بوضوح من خلال القرآن الكريم، فهو لم يمنع أويحرم الشعر، ولكنه نزه نفسه من أن يكون شعرا، ونزه النبي ﷺ من أن يكون شاعرا، وفرق بين الشعر المتفلت المقوض لأسس المجتمع الرشيد وبين شعر الفضيلة الذي يدافع عن الإسلام والمسلمين ، وأيضا فرق بين الشعراء الغاويين

دعاة الباطل والفساد، وبين الشعراء المؤمنين الصالحين الذاكرين الملتزمين بقيم المجتمع الإسلامي".(١٠)

فإن القرآن لم يتحدث عن الشعر من حيث هو فن من القول يجوز للمسلم أن يتعاطاه أو يحرم ذلك عليه، وإنما أورد لفظة الشعر أو الشاعر للتعريف بنفسه وللتفريق بين وبين الشعر فحسب.

وموقف الإسلام من تشجيع العلم معروف لا يحتاج إلى تفصيل، إن القرآن لم يحارب الشعر لذاته في هذه الأحكام وإنما حارب المنهج الذي سار عليه الشعر والشعراء منهج الأهواء والانفعالات التي لا ضابط لها ومنهج الأحلام المفهومة التي تشغل أصحابها عن تحقيقها.(١١)

وبعد هذا العرض يمكن أن نستنتج أن القرآن قد ميز بين فريقين من الشعراء، فريق استغل فنه فيما ينافي هدى الدين وآدابه، فهو الفريق المعيب، الذي حاربه القرآن وفريق اتجه بشعره إلى العمل الخيّر الجميل، وإلى نصرة الحق أنى وجد، فهو الفريق الذي أخرجه من ذلك الوصف العام، وأيده بكل قوة.

فالقضية إذن فيما يتناول الشعراء من المعاني والأغراض، وليست في الشعر ذاته لأنه سلاح ذو حدين قال الرسول ﷺ: "إنما الشعر كلام مؤلف، فما وافق الحق منه فهو حسن وما لم يوافق الحق منه فلا خير فيه(١٢). ويقول: الشعر بمنزلة الكلام حسنه كسحن الكلام وقبيحه كقبيح الكلام"(١٣) (١٤)

فكان ما مرّ عن موقف القرآن من الشعر، أما عن موقف الرسولﷺ من الشعر، فنحب أن ننوه أن ولد الرسولﷺ في الجزيرة العربية، ونشأ وترعرع بين قوم، يعدّون الشعر ديوان فضائلهم، وسجل مفاخرهم، ووسيلة تخليد مآثرهم، قوم.. يعشقون الكلمة الحلوة، ويطربون لسماع اللحن العذب، ويقيمون الأسواق، والمواسم تحقيقا لمتعة سماع الشعر.

فهو لهم جبلة فطروا عليها وسجية متأصلة في نفوسهم، يولد معهم ويعيش في داخلهم ويجري على ألسنتهم فلا غرو أن يقول هذا الرسول ﷺ: لا تدع العرب الشعر حتى تدع الإبل الحنين.(١٥)

ومن هنا كان تقبُّل الرسول ﷺ للشعر، وعنايته به، واستماعه له، شأنه في ذلك شأن أي عربي آخر. إذ لا تناقض بين الرسالة وبشرية الرسولﷺ من حيث استجابته للشعر { قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَـٰهُكُمْ إِلَـٰهٌ وَاحِدٌ } [الكهف: ١١٠]

وقد كان قبل النبوة يحضر مع والدته سوق عكاظ ليسمع الشعر، فقد روي أنه سمع الشاعر عمرو بن كلثوم وهو بعكاظ ينشد معلقته المشهورة(١٦)

وقال الخليل بن أحمد الفراهيدي كان الشعر أحب إلى رسول الله ﷺ من كثير من الكلام؛(١٧) ولذلك كان أدق فهما وأكثر إدراكا لمقاصد الشعراء فقد روى السكري أن النبي ﷺ لما سمع قول كعب بن زهير:

وجنـــاء فـــي جرتيهـــا للبـــصير بهـــا عتـــق مبـــين وفـــي الخـــدين تـــسهيل

فقال النبي هما أذناها نسبهما إلى الكرم،(١٨) وكان يتوق إلى معرفة كيفية جريان الشعر على لسان الشعراء، ولذلك نراهﷺ يسأل شاعره عبد الله بن رواحة: ما الشعر؟ فيجيبه ابن رواحه: شيء يختلج في صدر الرجل فيخرجه على لسانه شعرا.(١٩)

وقد وصل إلينا كثير من الأحاديث النبوية يتحدث فيها النبي ﷺ عن الشعر والشعراء من ذلك قوله: "إن من البيان لسحرا، وإن من الشعر لحكما" تعليقا على أبيات للعلاء بن الحضرمي. وفي تعليق رسول الله ﷺ إعجاب بحكمة الشاعر وإقرار بسحر بيانه وتوضيح لتأثير الشعر وأسره.(٢٠)

وروي الحديث بصورة أخرى تعطي الشعر قيمة توضيحية لمواطن استعمال الكلمات فقد روي: "إن من الشعر لحكمة، فإذا ألبس عليكم شيء من القرآن، فالتمسوه في الشعر؛ فإنه عربي".(٢١)

المبحث الثالث: أثر الإسلام في شعر ابن الرومي.

وإنما يبدأ بتمهيد بفقرة عن قوة تأثير الإسلام في شعر ابن الرومي ثم تتناول أثره في الفاظه ومعانيه ونحو ذلك

عرضنا فيما سبق بمبحثنا الثاني مسألة تأثير الإسلام في الأدب، ألفاظه، ومعانيه، وأخيلته، ونبسط هنا القول عن مدى تأثيره في شعر ابن الرومي خاصة، مفرداته، وموضوعاته، ومن الجلي أن سريان الأثر الديني، والقرآني عنده لا يظهر في ألفاظه،

فحسب، بل في معانيه، وتوجهاته الفنية، وعلاوة عليها في علاقاته الاجتماعية فمن ذلك:

أبـــى الله أن أطغـــى بـــشيء وليتـــه وعلمـــي بـــأن الله ذو البـــسط والقـــبض
ولو شئت أن أطغى علـــى النـــاس كلهـــم طغوت بمجد، واســـع الطـــول والعـــرض

ويقول ﷻ: { وَاللَّـــهُ يَقْبِضُ وَيَبْسُطُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ} [البقرة: ٢٤٥]

وتتشبع روح ابن الرومي بألفاظ القرآن، فتند عنه في أكثر الأغراض الشعرية خصوصية كالمديح إذ قال:

جـــواد ينـــادي الهـــاربين عطـــاؤه إلـــى أيـــن منـــي؟ لات حـــين منـــاص

ويقول ﷻ: { كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّن قَرْنٍ فَنَادَوا وَّلاتَ حِينَ مَنَاصٍ} [ص:٣]

وفي هذا التمثل الجميل لعصا موسى إبداع خاص يرتقي فيه عن المديح المألوف فيقول:

مـــديحي عـــصا موســـى وذلـــك أننـــي ضربت بـــه بحـــر النـــدى فتضحـــضحا
فيا ليت شعري إن ضـــربت بـــه الـــصفا أيبعـــث لـــي منـــه جـــداول ســـيحا
كتلك التي أبـــدت ثـــرى البحـــر يابـــسا وشـــقت عيونـــا فـــي الحجـــارة ســـفحا
ســـأمدح بعـــض البـــاخلين لعلـــه إن اطـــرد المقيـــاس أن يتـــسمحا

وهو يشير في ذلك إلى قوله ﷻ: { وَإِذِ اسْتَسْقَىٰ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ فَقُلْنَا اضْرِب بِّعَصَاكَ الْحَجَرَ ۖ فَانفَجَرَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا ۖ قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرَبَهُمْ} [البقرة: ٦١]

وفي مديحه لابن بلبل، يعقد مقارنة بين غيث الممدوح وغيث الله، وهو منساب العبارة، لماح الرؤية، قادر على استغلال الأشكال والألوان، والأحداث استغلالا فنيا رائعا:

رجـــت نفـــسي ســـبقك الغيـــث بالنـــدى فحـــم قـــضاء الله للغيـــث بالـــسبق
فكـــن ثانيـــا للغيـــث إذ كـــان بادئـــا ولا تسبق الـــشأوين يـــا واحـــد الخلـــق

ويعاتب أبا الفضل، فيقول متكئا على قصة يوسف عليه السلام:

أبـــا الفـــضل لا تحتجـــب إننـــي صـــفوح عـــن المخلـــف للوعـــد عـــافي
وإنـــي إذا لـــم يجـــد صـــاحبي بجـــدواه قابلتـــه بالعفـــاف
أمنـــت أمنـــت فـــلا تحفلـــ ـــن لـــي بـــاختلاف ولا انـــصراف

ويكشف عن سر موقفه، وعن سبب عتابه:

ســـألتك لا حاجـــة فـــاحتجز ت منـــي وطـــالبتني بالكفـــاف

ويعلو بسخرية مرة فيقول:

كـــأني ســـألتك قـــوت العبـــاد فـــي ســـنة البقـــرات العجـــاف

هذا هو ابن الرومي في شكواه وعتابه، في مدحه ورثائه إنسان، يصافح قلوبنا بصراحته وسخريته المرة من تناقض المجتمع وأفراده:

أفي الحـق أن يمـسوا خماصـا وأنـتم يكـاد أخـوكم بطنـه يتـبعج

ولا شك في ثقافة ابن الرومي المتشعبة، فلا يخفى اطلاعه ومعرفته بأحاديث الرسول ﷺ: "لو أنكم توكلتم على الله حق توكله لرزقكم كما يرزق الطير تغدوا خماصا وتروح بطانا(٢٢)." [رواه الإمام أحمد في المسند والترمذي والنسائي وابن ماجه].

ولا يخفى أيضا أثر الثقافات الأجنبية، التي غزت العصر العباسي، بل هي روافد مهمة في بناء الثقافة العربية، والأدبية على السواء تستوي في ذلك الثقافة اليونانية، والهندية، والفارسية، يقول ابن الرومي مادحا:

بـــل يفعـــل العـــرف حـــين يفعلـــه لجـــوهر العـــرف لا لأعراضـــه

والجوهر والعرض من كلام أهل الفلسفة ومعجمهم الخاص.

وابن الرومي من الشعراء القلائل، الذين تميزوا بمعاني خاصة، أشعلتها جذوة قريحتهم؛ إذ وقف من الموت موقفا، فريدا، مغايرا، عما ألفناه حين قال:

قد قلت إذ مدحوا الحياة فأكثروا للموت ألف فضيلة لا تعرف
فيه أمان لقائه بلقائه وفراق كل معاشر لا ينصف

وظاهرة التعليل والتحليل من أهم خصائص أسلوب ابن الرومي الفنية.

وإذا تجاوزنا هذه القرائن على حسن إسلام ابن الرومي وقربه من الله، قابلتنا قصائد أخرى خالصة، لا تنتمي إلى غرض شعري بارز، بل هي تأملات مسؤولة عن حقائق كونية، وسنن إلهية تندرج تحتها المخلوقات، فها هو يقول:

ولو صفيت كان أصفى لها ولكن دنيا الفتى جافيه
ولولا مكدرة رنقة لما قدرت قدرها صافيه
ولا بد للمرء من محنة لفتنة نعمائه نافيه

وحقا لا تخلو الحياة من كدر، فلولا المنغصات ما عرفنا طعم السعادة والصفاء.

ويجعل ابن الرومي العافية نعمة من النعم:

إذا جددت نعمة لامرئ فتكميلها جدة العافيه
وبالشكر قدر تجديدها ولله بعد يد شافيه

وهو في ذلك لم يبعد عن دعاء الرسولﷺ، الدائم بطلب العفو والعافية.

ويؤمن ابن الرومي إيمانا، عميقا بالقدر والمكتوب فيقول:

إذا أذن الله في حاجة أتاك النجاح بها يركض

فهذا هو التسليم المريح مهما اشتدت العواقب.

ولا رشد إلا بتوفيقه وإن محض الرأي من يمحض
ومن ذا يديرنا غيره ومن يبرم الأمر أو ينقض؟
تبارك من لم يزل نوره يزيد بيانا ولا يغمض

ومن تأملاته، التي لا حد لنهايتها قوله:

عـــزت مطالـــب دنيـــا كـــل ذي أدب وهـــان مطلـــب دنيـــا الأنـــوك الخـــرق
وقـــــدر الله فيهـــــا أن يـــــذللها فهـــــان مطلبهـــــا للجاهـــــل الحـــــق
فلـــــيس ينفـــــك ذوعلـــــم وتجربـــــة مـــــن مأكـــــل جـــشب أومـــشرب رنـــــق

وقال أيضا:

وذو الجهالـــــة منهـــــا فـــــي بلهنيـــــة مـــــن مـــــسمع حـــــسن أو منظـــــر أنـــــق
تبـــارك العـــدل فيهـــا حـــين يقـــسمها بـــين البريـــة قـــسما غيـــر متفـــق

وعليك ألا تبحث في شعر ابن الرومي عن معنى أو لفظ مقتبس، بل ابحث عن تكامل فني، تجسده رؤيته، ويصوره فنه بما يشعل اللفظ فيها من وهج، والمعنى من عمق، ودلالة.

وإن الدنيا بما فيها من ملذات ورغبات تتضاءل في عيني ابن الرومي إزاء الجنة؛ فنراه يقول:

متـــى غمـــرت دنيـــا أخاهـــا بمائهـــا فلـــيس وإن أروتـــه غيـــر غريـــق
عليـــك بـــدار لا يـــزول ظلالهـــا ولا يتـــأذى أهلهـــا بمـــضيق
فمـــا يبلـــغ الراضـــي رضـــاه ببلغـــة ولا ينقـــع الـــصادي صـــداه بريـــق

فإنه الشاعر، الذي يعيش بفنه، في دواخل النفس الإنسانية؛ فيجسد أحلامها، وانهزامها، وطموحها وعشقها للحياة.

ولا يقتصر أثر الإسلام في شعر ابن الرومي على مجرد الألفاظ، بل يتجاوزها إلى المعاني وحسن التمثل في السلوكيات والمواقف، والعلاقات وهو بهذا يخالف ما ألفناه عند الشعراء، لأنه ينبثق من رؤية شاملة، ومن أمثلة ذلك قصيدة ابن الرومي في مديح الحسن بن عبيدالله بن سليمان، يبدؤها بحمد الله في سبعة أبيات، معددا نعمه، شاكرا آلاءه:

أحمـــــد الله نيـــــة وثنـــــاء غـــدوة بـــل عـــشية بـــل مـــساء
بـــل جميعـــا، وبـــين ذلـــك، حمـــدا أبـــــديا يطبـــــق الآنـــــاء
حمـــد مـــستعظم جـــلالا عظيمـــا مـــــن مليـــــك، وشـــــاكرا آلاء
ملـــك يقـــدح الحيـــاة مـــن المـــو تـــى، ويكفـــي بفـــضله الأحيـــاء
صـــاغنا ثـــم قاتنـــا ووقانـــا بـــالتى نتقـــي بهـــا الأســـواء
مـــن بنـــاء، يكننـــا، ولبـــوس ودواء، يحـــــــــارب الأدواء
ثـــم أهـــدى لنـــا الفواكـــه شـــتى والتحيـــات، جـــل ذاك عطـــاء!

ثم يخص من الفواكه الموز، فيصف منزلته قائلا:

عظمـــت تلكـــم الأيـــادى وجلـــت فـــاذكر المـــوز، واتـــرك الأشـــياء
إنمـــا المـــوز حـــين تمكـــن منـــه كاســـمه مبـــدلا مـــن المـــيم فـــاء
وكـــذا فقـــده العزيـــز علينـــا كاســـمه مبـــدلا مـــن الـــزاى تـــاء
فهـــو الفـــوز مثلمـــا فقـــده المـــو ت، لقـــد بـــان فـــضله، لا خفـــاء

ثم ينتقل إلى المديح:

إننـــي للحقيـــق بالـــشبع الـــسا ئـــغ مـــن أكلـــه وإن كـــان مـــاء
مـــن عطايـــا أبـــي محمـــد المحـــ ـــمود ظرفـــا وحكمـــة وســـخاء

وفي قصيدة، مادحة، يستهلها بالدعاء للممدوح:

إذا خـــاب داع أو تنـــاهى دعـــاؤه فـــإني داع والإلـــه مجيـــب
دعـــاء امـــرئ، أحييـــت بـــالعرف نفـــسه وذاك دعـــاء لا يكـــاد يخيـــب
أدام لـــك الله المكـــارم والعـــلا فإنهمـــا شـــيء إليـــك حبيـــب
وأبقـــاك للمـــداح يهـــدون مـــدحهم إليـــك علـــى علاتهـــم وتثيـــب

ويتعرض ابن الرومي لمواقف، صعبة من الأخلاء، فلا يجد عزاء، إلا اللجوء إلى الله فحسبه من نصير:

رأيت الأخلاء في دهرنا وأجدر بنائبة أن تنوبا
إذا حشدوا لأخ مرة أظلوه للمن عودا ركوبا
سأستنصر الله حسبي به نصيرا وإلا فحسبي حسيبا

بل يجعل ابن الرومي الإسلام، زاجرا له عن الكذب في مديحه:

سيسألني الأقوام عما أثبتني به، فبماذا أنت إياى آمر؟
أأخبرهم بالحق وهي شكية أم الإفك فالإسلام عن ذاك زاجر
وإن امرأ باع الثناء من امرئ فباء بحرمان وإثم لخاسر
أتحرمني الجدوى وأطريك كاذبا شهدت إذا فتحظى وأشقى بالذي أنا وازر؟
أني لنفسي ظالم من بناء، وهبني كتمت وأنك إن كلفتني ذاك جائر
الحق أو قلت غيره أتخفى على أهل العقول السرائر؟
أبى ذاك أن السر في الوجه ناطق وأن ضمير القلب في العين ظاهر
وحسبك من شكواى في كل مجلس نئيمي وأنفاسي عليك الزوافر
وصمتي ومطى حاجبي وإشاحتي بوجهي إذا سمي لي اسمك ذاكر

وابن الرومي صاحب موقف جاد من ممدوحيه، لذا كثرت شكواه منهم؛ لجحدهم حقه:

ألا أبلغا عني العلاء بن صاعد رسالة ذى نفس قليل هلوعها
فإن تحتجز فالله جم عطاؤه وإن تحتجب فالشمس جم طلوعها

ورغم ذلك يتملكه الكبرياء، فيتسامى على جروحه:

فقد عزفت عن كل ما كنت أبتغى لديك فأمسى كبرياء خضوعها
سأظلف من نفس بذلت سجودها وكان حقيقا أن يصان ركوعها
هي نفس أغنتها عن الدهر كله قناعتها إذا لم يفتها قنوعها

"قال أبوالعباس أحمد بن عبيدالله بن عمار: ومن نادر شعر أبي الحسن في هذا المعنى قوله، ووصف إتعاب الشعراء بدءوبهم في صناعتهم، وما ينصرم من أعمارهم،

وأن إلحاحهم في طلب ما في أيدي من أسلفوه مديحهم لو كان رغبة منهم إلى ربهم كان أجدى عليهم، وأقرب من درك بغيتهم، ونجح طلبتهم، ثم انحرف إلى توبيخ من مدحه فحرمه بأحسن عبارة، وأرضى استعارة، فقال:

للنـــاس فيمـــا يكلفـــون مغـــارم عنـــد الكـــرام لهـــا قـــضاء ذمـــام
ومغـــارم الـــشعراء فـــي أشـــعارهم إنفـــاق أعمـــار وهجـــر منـــام
وجفـــاء لـــذات ورفـــض مكاســـب لـــو حولفـــت حرســـت مـــن الإعـــدام
وتشاغل عن ذكر رب لم يزل شهدت مـن حـــسن الـــصنائع ســـابغ الإنعـــام
لو بخدمته تشاغل معشر كتمت أفما لـذلك خـــدموكم أجـــدى علـــى الخـــدام
حرمـــــــــة مرعيـــــــــة إن الكـــــرام إذا لغيـــــر كـــــرام
لـــم أحتـــسب فيـــك الثـــواب بمـــدحتي إيـــاك يـــا بـــن أكـــارم الأقـــوام
لـــو كـــان شـــعري حـــسبة لـــم أكـــسه أحـــدا أحـــق بـــه مـــن الأيتـــام
لا تقـــبلن المـــدح ثـــم تعافـــه فتنـــام والـــشعراء غيـــر نيـــام
واحـــذر معـــرتهم إذا دنـــستهم فلهـــم أشـــد معـــرة العـــرام
واعلـــم بـــأنهم إذا لـــم ينـــصفوا حكمـــوا لأنفـــسهم علـــى الحكـــام
وجنايـــة العـــادي علـــيهم تنقـــضي وعقـــابهم يبقـــى مـــع الأيـــام"(٢٣)

تشتمل القصيدة الماضية على جماليات، متعددة سواء على المستوى الأخلاقي، أم على المستوى الفني، إذ عرض فيها ابن الرومي قضية الشاعر الأزلية، قضية الإبداع الشعري وما يتخللها من معاناة، وشحذ قريحة، وإنفاق أعمار، ومشقة عقلية راقية، لا يجسر عليها إلا فحول الشعراء، ومع هذا لا يقدر عملهم، ولا يثاب.

فيتمنى ابن الرومي لو انصرف هذا الجهد إلى ذكر الله وعدم التشاغل عنه، وإن الأيتام هم أحق الناس بالكساء ويقصد به الشعر من غيرهم؛ لذلك حذر ابن الرومي ممدوحيه من معرة الشعراء؛ لأن جناية العادي عليهم تنقضي، وعقابهم يبقى مع الأيام، وهو يشير بهذا إلى خلود الشعر، وذهاب ما يثاب عليه الشعراء، فقصة زهير بن أبي سلمى في مديح الحارث بن عوف، وهرم بن سنان شائعة، إذ ذهب ما أعطوه، وبقي ما أعطاهم.

ويلقانا ابن الرومي بوجه مضيء آخر، إذ يقول في الهجاء:

فـــدونك مـــا حاولتـــه فبلغتـــه وردت ولكـــن لا إخـــا لـــك تـــصدر
فقـد كنـت نـسيا لا تحـس ولا تـرى زمانـا طـويلا فاصـبر الآن تـذكر
سـتروى رواة الـشعر فيـك قـصائدا يغنـى بهـا مـا نـودي: الله أكبـر
شـوارد لا يثنـى المهيـب شـريدها ولا يتنـاهى غربهـا حـين يزجـر
تهب هبـوب الـريح فـي كـل وجهـة عباديـد منهـا منجـد ومغـور
سـداها مخازيـك التـي قـد علمتهـا ولحمتهـا منـى الكـلام المحبـر
قـواف إذا مـرت بـسمعك خلتهـا ملاطـيس تزجيهـا مجـانيق تخطـر
لهـا هزمـات فـي الـرءوس كأنهـا ركايا ابـن عـاد غورهـا لـيس يـسبر
وإن كنـت لا أهجـوك إلا كحـالم يـرى مـا يـراه النـائمون فيهجـر
لأنـك معـدوم الوجـود وإنمـا يرينيـك ظنـى ريثمـا أتـدبر
فـإن كنـت شـيئا ثابتـا فهبـاءة تـضاءل فـي عـين اليقـين وتـصغر

لا يتخلص ابن الرومي حتى في هجائه من إيمانه بدور الشعر، وأهميته في نشر المثالب والمناقب على حد سواء:

يـسوم هجـائي كـي ينـوه باسـمه وفـي الـسب ذكـر للئـيم ومفخـر

والعين عند العرب لها دور خطير في الكشف عن المشاعر والأحاسيس؛ لذا يعرف الإنسان من عينيه، قال ابن الرومي في أعمى:

كيـف يرجـو الحيـاء منـه صـديق ومكـان الحيـاء منـه خـراب؟

ونرى أثر القرآن بألفاظه ومعانيه، واضحا في توجه ابن الرومي الفني، فهو يحذر من التعرض لهجائه فيقول:

ألـم تـر أننـي قبـل الأهـاجي أقـدم فـي أوائلهـا النـسيبا
لتخـرق فـي المـسامع ثـم يتلـو هجـائي محرقـا يكـوي القلوبـا
كـصاعقة أتـت فـي إثـر غيـث وضـحك البـيض تتبعـه نحيبـا
عجبـت لمـن تمـرس بـي اغتـرارا أتـاح لنفـسه سـهما مـصيبا

سأرهق من تعرض لي صعودا وأكوي من مياسمي الجنوبا

ويستغفر ابن الرومي ربه لأنه ارتكب إثما، وبذل مديحه لمن لا يستحقه، إذ يقول:

من ضن عني ببذل نائله ضننت عنه ببذل أيامي
تالله لا تلتقي الثلاثة وصـ ليه وإثراؤه وإعدامي
قد كنت بالله مشركا وثنًا فزال شركي وصح إسلامي
أستغفر الله من عبادتهم فإنها من عظيم آثامي
طالت صلاتي لهم ورافدها صومي من ما لهم وإحرامي
أستغفر الله كم، وكم رجل أعظمته! وهو دون إعظامي
ثم تبينت أنه غرض ليس من اللائي يقصد الرامي
من جامد الكف حين تسأله وخائن الحبل عند إعصامي
وضاحك بي وليس يضحكه شيء سوى أن ظلفي الدامي
يضحك من كل ما بكيت له كأن لذاته بآلامي
لو احتججنا في محفل لدرى أن ليس إلزامه كإلزامي
والله لا صح باطني لأخ يصحه الله عند إسقامي

ويدرك ابن الرومي البون الشاسع بين حمد الناس وحمد الله،فيقول ساخرا:

كأنك قد حللت من المعالي بحيث الشمس والقمر المنير
فإن الله أعلى منك جدا ويرضيه من الحمد اليسير

وإذا انتقلنا إلى الرثاء، قابلنا ابن الرومي بهذه الروح الإيمانية الشجية، وهذا الاستسلام الراقي، يقول في أمه:

يريد المعزي برء كلمي بوعظه ولم يك غير الله يبرئ ما كلم
هو الواهب السلوان والصبر وحده لذي الرزء والمهدي الشفاء لذي السقم

ويخرج ابن الرومي عن دائرة الرثاء، إلى دائرة العزاء حين يرثي أخاه فيقول:

وتسليني الأيام لا أن لوعتي ولا حزني كالشيء ينسي فيعزب

ولكـــن كفـــاني مـــسليا ومعزيـــا بـــأن المـــدى بينـــي وبينـــك يقـــرب

ويؤثر القرآن، بهديه في نفس ابن الرومي وشعره، فيذكر قوله تعالى: { إِنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ ۚ وَاللَّـــهُ عِندَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ} [التغابن: ١٥] في رثاء أحد أبنائه:

يـــا حـــسرتا فـــارقتني فننـــا غـــضا، ولـــم يثمـــر لـــي الفـــنن
ولقـــد تـــسلي القلـــب ذكرتـــه أنـــي بـــأن ألقـــاك مـــرتهن
أولادنـــا أنـــتم لنـــا فـــتن وتفـــارقون فـــأنتمو محـــن

وينطلق ابن الرومي من قاعدة إيمانه الراسخ، بمشيئة الله في الحياة والموت، فها هو يقول، متمنيا:

بـــودي أنـــي كنـــت قـــدمت قبلـــه وأن المنايـــا دونـــه صـــمدت صـــمدي
ولكـــن ربـــي شـــاء غيـــر مـــشيئتي وللـــرب إمـــضاء المـــشيئة لا العبـــد

وبعقلية أهل الجدل والحوار، يبرر لنا منزلة الأولاد:

وأولادنـــا مثـــل الجـــوارح أيهـــا فقـــدناه كـــان الفـــاجع البـــين الفقـــد
لكـــل مكـــان لا يـــسد اختلالـــه مكـــان أخيـــه فـــي جـــزوع ولا جلـــد
هـــل العـــين بعـــد الـــسمع تكفـــي مكانـــه أم السمع بعد العين، يهـــدي كمـــا تهـــدي؟

ومن نماذجه الفريدة في التعزية قوله، يعزي القاسم عن مولود له:

تعجـــل مولـــود ليمهـــل والـــد ولا بـــدع قـــد يحمـــي العـــشيرة واحـــد
لقـــد دافـــع المفقـــود عنـــك بنفـــسه عرامـــا فـــلا يحزنـــك أنـــك فاقـــد
ومـــن قبلـــت منـــه الليـــالي فـــداءه فحـــق بـــأن يلقينـــه وهـــو حامـــد

ولا يكتفي ابن الرومي بالتعزية مثل غيره، بل يقدم لنا تعليلا لذلك؛ فمولود القاسم دافع عنه ليبقى هو، وعلي بن المسيب يفقد ابنته، فيمضي معه ابن الرومي مقنعا إياه بطريقته الآسرة:

أخـــا ثقـــة أعـــزز علـــيّ بنوبـــة منـــاك بهـــا صـــرف القـــضاء المقـــدر

أصبت وما للعبد عن حكم ربه محيص، وأمر الله أعلى وأقهر
وقد مات من لا يخلف الدهر مثله عليك من الأسلاف، والحق يبهر
أب بعد أم بررة وأقارب مضوا سرجا في ظلمة الليل تزهر
فنمت ولم تهجر شرابك بعدهم وكم تهجر النفس الزلال وتسهر
تعزيت عمن أثمرتك حياته ووشك التعزي عن ثمارك أجد

نعم، إذا تعزيت عن أمك ووالدك وأقربائك، وهم من الأسلاف الذين بنوا وربوا، ولهم تاريخ أضاء حياتك، فكيف لا تتعزى في ابنة لك؟

وينصحه ابن الرومي ويعظه:

فلا تهلكن حزنا على ابنة جنة غدت وهي عند الله تحبى وتحبر
لعل الذي أعطاك ستر حياتها كساها من اللحد الذي هو أستر

ويفيض شعر ابن الرومي بالحكم والمواعظ، فيختم قصيدته بها:

وما هذه الدنيا بدار إقامة ولكنما الدنيا مجاز ومعبر

وينقلنا بتأملاته الرحبة، وبأفقه المتسع؛ لنرى حقيقة الموت:

فيا آملا أن يخلد الدهر كله سل الدهر عن عاد وعن أختها إرم
يخبرك أن الموت رسم مؤبد ولن تعدو الرسم القديم الذي رسم
رأيت طويل العمر مثل قصيره إذا كان مفضاه إلى غاية تؤم

وتمتد مساحة تأملاته؛ ليقف بنا زاجرا:

حتى متى نشتري دنيا بآخرة سفاهة ونبيع الفوق بالدون
معللين بآمال تخادعنا وزخرف من غرور العيش موصون؟

ومن الموضوعات الاجتماعية، التي تناولها ابن الرومي في شعره، وانتشرت في مجتمعه (الفقر) الذي قد يعاب به بعض الناس، فيرد عليهم مبرزا تسليمه بالقضاء والقدر:

وما الفقر عيبا ما تجمل أهله ولم يسألوا إلا مدواة دائه
ولا عيب إلا عيب من يملك الغنى ويمنع أهل الفقر فضل ثرائه
عجبتُ لعيب العائبين فقيرهم بأمر قضاه ربه من سمائه

لم ينشغل ابن الرومي بذاته عن مجتمعه، فهو شاعر إيجابي، يألم لما يؤلم الناس، ويعيش معهم مشاكلهم، فنراه يرسم صورة لبخيل طغت عليه شهوة جمع المال فيقول:

إذا غمر المال البخيل وجدته يزيد به يبسا وإن ظن يرطب
وليس عجيبا ذاك منه فإنه إذا غمر الماء الحجارة تصلب

لقد قرب ابن الرومي إلينا صورة البخيل، الذي يغمره ماله، فيزداد صلابة بصورة الحجر الذي تغمره المياه، فيزداد تصلبا.

مصادر ابن الرومي:

نتبين بعد هذه الدراسة أن ابن الرومي اتكأ على مصادر أهمها:

- القرآن الكريم، وما يشتمل عليه من قيم أخلاقية، وقصص، ومواعظ، ونصائح إيمانية من شأنها أن تهذب السلوك، وتبني شخصية المسلم.
- الشعر العربي.
- تجربته الخاصة الفريدة من نوعها.
- ثقافته المتشعبة، التي ازدان بها المجتمع العباسي.

نتائج البحث:

ونخلص من كل ما سبق، مما رصدناه عن عظيم تأثير الإسلام في أشعار مبدعنا، ابن الرومي إلى عدد من النتائج، التى توصل إليها بحثنا، وسلط عليها مزيدا من الضوء، وكان منها:

أولا: ابن الرومي من أوائل الشعراء الذين صدروا في شعرهم عن رؤية إسلامية تنطلق من مفهوم الأدب الإسلامي، وما يتطلبه من تمثل كامل لمبادئه ثقافة وسلوكا.

ثانيا: إن قصائد ابن الرومي ومقطوعاته لا تخلو من جانب توضيحي وتعليلي، فشعره يقوم على إبانة المعنى من جميع أطرافه، معتمدا على جانبين: التفريع، والتشعيب، فإذا هو واضح أشد الوضوح في ألفاظه، كما هو واضح في موضوعه.

ثالثا: لم يبدع ابن الرومي في غرض شعري دون آخر مثل بقية الشعراء إذ نجد تفاوتا لديهم، فإذا برع أحدهم في غرض اضمحلت مقدرته الفنية في آخر، وهذا ما لا نجده عند ابن الرومي، فشعره طبقة واحدة من الاستواء الفني الرائق سواء في غزله، أم في رثائه أم في شكواه.

رابعا: إن صدور ابن الرومي عن طبيعة فنية (وهي الطبيعة التي تجعل فن الشاعر صورة لحياته) جعلت شعره يكتسب قدرا عظيما من الصدق والواقعية، ونعني بالصدق: الكشف عن مكنونات الذات، والاعتراف حتى بنقائصها، أما الواقعية فهي: القدرة على نقل التجربة الشعرية إلى المتلقي بصدق لا يتعارض مع وجودها في الحقيقة.

خامسا: من سمات ابن الرومي الأسلوبية البساطة والسهولة، وهما سمتان تنبعان من تدفق شعري لا يعرف النضوب، ونفس قد اكتملت لها أدوات التعبير والفن.

سادسا: يزاوج ابن الرومي في فنه بين عناصر الشكل والمضمون، فتأتي المحسنات البديعية في شعره ملتحمة بالمعنى في نسيج واحد، فلا نشعر بأن البيت مصنوع من أجل المحسنات وحدها.

سابعا: يحتل ابن الرومي منزلة شعرية بارزة في الشعر العربي حال غياب ديوانه عن المكتبة العربية دون معرفتها لدى كثير من الباحثين والدارسين؛ إذ ترك أثرا كبيرا في كثير من الشعراء، الذين ترسموا خطاه، وحاولوا النسج على منواله، هذا الأثر لا ينحصر في شعراء مغمورين أو ناشئين، بل وجد في شعراء عظماء معروفين مثل المتنبي والمعري، ولعلي بهذه الدراسة أفتح مجالا لتتبع هذا الأثر.

فإن أخلاقيات الإسلام، وقيمه ينبغي ألا تنفصل عن رؤية الشاعر وتجربته الخاصة، فهو يتخذ من الشعر أداة للتعبير والتصوير، فيعبر عن أنفسنا حين يعبر عن نفسه، فتمتزج ذاتنا بذاته، فنعيش فنه روحا وخلقا ساميا.

هوامش البحث:

(١) ديوان ابن الرومي: تحقيق: حسين نصار، مطبعة دار الكتب والوثائق القومية ، القاهرة، ط١، ٢٠٠٣، ص٢٥

(٢) وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، أبو بكر بن خلكان، تحقيق: د. إحسان عباس، دار صادر بيروت، (د.ط) (د.ت)، ج٢/ ١٢٣

(٣) تاريخ آداب اللغة العربية، جرجي زيدان، منشورات دار مكتبة الحياة، بيروت لبنان، ١٩٨٣، ط١، ص٤٦٠ .

(٤) تاريخ الأدب العربي، العصر العباسي الثاني، د. شوقي ضيف، دار المعارف ط٤، (د.ت)، ص١٩

(٥) ابن الرومي حياته من شعره، عباس محمود العقاد،المكتبة العصرية، صيدا، بيروت ١٤٠٤هـ ١٩٨٤ص٣٨.

(٦) ديوان ابن الرومي، شرح: الأستاذ: أحمد حسن بسبح، دار الكتب العلمية، بيروت، ط٣، ٢٠٠٢، ج١، ٧٥

(٧) الشعر العباسي تطوره وقيمه الفنية محمد أبوالأنوار، ط٢، دار المعارف ١٩٨٧ ص٣٩٧.

(٨) رسالة الغفران، المعري،تحقيق عائشة عبدالرحمن، دار المعارف،ط٦،(د.ت) ص٤٧٦،،٤٧٧.

(٩) تاريخ الأدب العربي،العصر العباسي الثاني، ص١٩٨.

(١٠) الإسلام والشعر : د. سامي مكي العاني سلسلة عالم المعرفة عدد ٦٦ المجلس الوطني للثقافة والفنون والأداب الكويت، أغسطس ١٩٩٦ ص٣٥

(١١) في ظلال القرآن، سيد قطب، دارالشروق، القاهرة، ط١،(د.ت)، ج١/ ٢٣

(١٢) الأدب المفرد الجامع للآداب النبوية، الحافظ أبوعبدالله البخاري، بتخريجات، الألباني، دار الصديق، الرياض، ط٢، ٢٠٠٠، ص١٢٥

(١٣) العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده، أبوعلي الحسن بن رشيق القيرواني، تحقيق: محمد محي الدين عبد الحميد، دار الجيل بيروت، ط٥، ١٩٨١، ج١/ ٧٨

(١٤) سنن الدارقطني، الحافظ علي بن عمر الدارقطني، تحقيق: الأرنؤوط وآخرون، مؤسسة الرسالة، بيروت، (د.ت) (د.ط)، ج٣/٤٩٠

(١٥) العمدة ج١/ ٣٠

(١٦) الأغاني، أبو الفرج الأصفهاني، دار الكتب المصرية، القاهرة،ط١، ١٩٥٢، ج٩/ ١٧١

(١٧) الجامع لأحكام القرآن، أبو عبد الله القرطبي، تحقيق: د. عبد الله التركي، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط١، ٢٠٠٦، ج١٥/ ٥٢

(١٨) شرح بانت سعاد، لابن هشام، تحقيق: د. محمود عكاشة، دار النشر للجامعات، القاهرة، ط١، ٢٠١٤، ص١٣١

(١٩) شرح شواهد المغني، جلال الدين السيوطي، بتصحيحات: محمد محمود ابن التلاميد الشنقيطي، لجنة التراث العربي، (د.ك)، (د.ط)، (د.ت)، ج١/ ٢٩٣

(٢٠) الإسلام والشعر ص٤٢

(٢١) لسان العرب، ابن منظور، دار صادر، بيروت، ط١، ١٣٠١هـ، مادة (شعر)

(٢٢) سنن الترمذي، أبو عيسى محمد ابن الضحاك الترمذي، تحقيق:رائد بن صبري أبي علفه، دار الحضارة، الرياض، ط٢، ٢٠١٥، حديث ٢٣٤٤

[٢٣] زهر الآداب، وثمر الألباب، أبو إسحاق القيرواني، قدم له: د. صلاح الدين الهواري، المكتبة العصرية، بيروت، ط١، ٢٠٠١، ، ج١/ ٨٠

مصادر البحث ومراجعه:

١. الإسلام والشعر : د. سامي مكي العاني سلسلة عالم المعرفة عدد ٦٦ المجلس الوطني للثقافة والفنون والأداب الكويت، أغسطس ١٩٩٦م.

٢. الأدب المفرد الجامع للآداب النبوية، الحافظ أبوعبدالله البخاري، بتخريجات، الألباني، دار الصديق، الرياض، ط٢، ٢٠٠٠م.

٣. الأغاني، أبو الفرج الأصفهاني، دار الكتب المصرية، القاهرة،ط١، ١٩٥٢م.

٤. تاريخ الأدب العربي، العصر العباسي الثاني، د. شوقي ضيف، دار المعارف ط٤،(د.ت).

٥. تاريخ آداب اللغة العربية، جرجي زيدان، منشورات دار مكتبة الحياة، بيروت لبنان، ط١، ١٩٨٣م.

٦. الجامع لأحكام القرآن، أبو عبد الله القرطبي، تحقيق: د. عبد الله التركي، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط١، ٢٠٠٦م.

٧. ديوان ابن الرومي: تحقيق: حسين نصار، مطبعة دار الكتب والوثائق القومية ، القاهرة، ط١، ٢٠٠٣م.

٨. ديوان ابن الرومي، شرح: الأستاذ: أحمد حسن بسبح، دار الكتب العلمية، بيروت، ط٣، ٢٠٠٢م.

٩. رسالة الغفران، المعري،تحقيق عائشة عبدالرحمن، دار المعارف،ط٦،(د.ت).

١٠. ابن الرومي حياته من شعره، عباس محمود العقاد،المكتبة العصرية، صيدا، بيروت ١٤٠٤هـ ١٩٨٤م.

١١. زهر الآداب، وثمر الألباب، أبو إسحاق إبراهيم القيرواني، قدم له: د. صلاح الدين الهواري، المكتبة العصرية، بيروت، ط١، ٢٠٠١م.

١٢. سنن الدارقطني، الحافظ علي بن عمر الدارقطني، تحقيق: الأرنؤوط وآخرون، مؤسسة الرسالة، بيروت، (د.ت) (د.ط)

١٣. سنن الترمذي، أبو عيسى محمد ابن الضحاك الترمذي، تحقيق:رائد بن صبري أبي علفه، دار الحضارة، الرياض، ط٢، ٢٠١٥م.

١٤. شرح بانت سعاد، لابن هشام، تحقيق: د. محمود عكاشة، دار النشر للجامعات، القاهرة، ط١، ٢٠١٤م.
١٥. شرح شواهد المغني، جلال الدين السيوطي، بتصحيحات: محمد محمود ابن التلاميد الشنقيطي، لجنة التراث العربي، (د.ك)، (د.ط)، (د.ت).
١٦. الشعر العباسي تطوره وقيمه الفنية محمد أبوالأنوار، ط٢، دار المعارف ١٩٨٧ م.
١٧. العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده، أبوعلي الحسن بن رشيق القيرواني، تحقيق: محمد محي الدين عبد الحميد، دار الجيل بيروت، ط٥، ١٩٨١م.
١٨. في ظلال القرآن، سيد قطب، دارالشروق، القاهرة، ط١،(د.ت)
١٩. لسان العرب، ابن منظور، دار صادر، بيروت، ط١، ١٣٠١هـ.
٢٠. وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، أبو بكر بن خلكان، تحقيق: د. إحسان عباس، دار صادر بيروت، (د.ط) (د.ت)